دور الاسلام فى تطوير علم الطب

للدكتور عبـــد العلى رئيس قسم العربية
بالكلية الحميدية الحكومية بهوفال بالهند

الحلقة الثانية والأخيرة

تعاليم النبي الطبية

قد عنى نبي الاسلام بالصحة البدنية عناية كبيرة حتى عدها من أكبر نعم الله على الانسان ، فنبه المسلمين على أهمية اللياقة البدنية قائلا :

« إن لجسدك عليك حقا »

و « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف »

وسن النبي سنة الاعتدال فى كل شيء حتى فى الدين ، فقال :

« إياكم والغلو فى الدين ، فانما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » .

وقيل ان النبي ﷺ رأى مرة رجلا مسنا يمشي ويتهادى بين ولديه ، فسأل عنه فقيل له : انه نذر أن يحج ماشياً على قدميه . فقال له : ان الله غنى عن تعذيب هذا نفسه ، احملوه . فحملوه على بعير[1] .

ولا يتسع المقام لذكر جميع أحاديثه الطبية التى يبلغ عددها نحو أربعمائة[2]

---

(١) محمد فريد وجدى ، العناية بالصحـــة فى الاسلام فى مجلة « نور الاسلام » الجزء السادس المجلد الخامس ص ٤٠٦

(٢) الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله : الاسلام ومشاكل القرن العشرين ، فى مجلة اللسان العربي ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الأول ص ٢٠٩

ولكن بعضها منقولة ههنا كنماذج لارشاداته الطبية :

« النظافة شطر الايمان »

« خمس من الفطرة : الاستحداد ، والختان ، وقص الشارب ، ونتف الأبط، وتقليم الأظافر ».

« السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب » .

« اذا توضأ العبد فمضمض خرجت الخطايا من فيه ، فاذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه » .

« اذا استيقظ أحدكم من منامه ، فليستنثر ثلاث مرات ، فان الشيطان يبيت على خياشيمه » .

« ان الشيطان حساس لحاس ، فاحذروه على أنفسكم . من بات وفى يده غمر ، فأصابه شىء ، فلا يلومن إلا نفسه » .

ووصف الأستاذ الفنجرى المشار اليه أعلاه الأهمية الطبية لهذه الأحاديث قائلا :

«لقد جاء الاسلام منذ ١٤ قرنا من الزمان فى وقت كان الانسان لايعرف فيه شيئاً عن أهمية النظافة فى محاربة الأمراض ، ولا يعرف ما هو الميكروب أو الطفيليات ، ولذلك كان الاسلام يستعمل هذه التعبيرات لكى يبسط الأمور للناس ، ويخاطبهم على قدر عقولهم وفهمهم وعلمهم .

« وبهذا كله يجعل الاسلام مسألة النظافة عقيدة وسلوكا ملزما للمسلم فى كل شئون حياته ، وليست لمجرد الخوف من المرض وحده . وما أعظم أن تكون النظافة غاية لذاتها قبل أن تكون وسيلة لمنع المرض[١]» .

(١) راجع الطب الوقائى فى الاسلام بقلم الدكتور أحمد شوقى الفنجرى فى مجلة العربى « الكويت » العدد ٢٠٢ ص ٥٩ - ٦٠

وفوق ذلك اتخذ الاسلام الاجراءات الضرورية فى مكافحة الأمراض الوبائية، وتلوث البيئة . وبعض أقواله ﷺ بهذا الصدد مذكورة فيما يلى :

« اتقوا الملاعن الثلاث : التبول فى الموارد وفى الظل وفى طريق الناس » .

« لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ، ثم يتوضأ فيه ، فان عامة الوسواس منه »

وقد كشف الطب الحديث أن التبول فى الماء يسبب مرض البلهارسيا وهو البول الدموى . ولا يزال هـذا المرض منتشرا بين سكان القرى فى العالم العربى حتى أن عدد المصابين به فى بعضها يبلغ ٨٠ فى المائة من أهلها[١].

« ان من القرف التلف »

والقرف هو ملامسة المريض ، والتلف هو الهلاك أو العدوى .

ووضع النبي مبدأ الحجر الصحى عند ما قال :

« اذا كان الطاعون فى بلد فلا تدخلوه ، وإذا كنتم فيه فلا تخرجوا منه » .

ومما يناسب هذا المقام أن تعاليم الرسول الطبية ليست مقصورة على الطب الوقائى فحسب ، بل انه شجع المسلمين للقيـام بدراسات وبحوث مدققة فى الطب العلاجى أيضا ، اذ قال :

تداووا عبـاد الله فان الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء إلا داء واحد وهو الهرم » .

وفى نفس الوقت حـذر النبي الناس من مضرة تعاطى الدواء بافراط ، فأشار عليهم بالامتناع عن التداوى فى حالة الاستغناء عنه قائلا :

« من استقل بداءه ، فلا يتداوين ، فانه رب دواء يورث الداء[٢]» .

---

(١) محمد فريد وجدى ، المصدر المذكور ص ٤٠٨

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، الجلد الثالث ص ٢٧٣

كما حذر المسلمين من عاقبة الدجل والخرافات والأوهام التى كانت تسيطر على عقولهم فى الزمن الجاهلى ، فانه كافح هذه الشرور وخلصهم منها .

وبالاضافة إلى هذا ، بعض إرشاداته الطبية مما يدهش العقل البشرى . اعتبر على سبيل المثال ، أقواله التالية :

« اذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه ، فان فى أحد جناحيه داء وفى الآخر دواء » .

وحسبما وصف الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، مدير مكتب تنسيق التعريب فى الوطن العربى بالرباط ، قد قام مؤتمر طبى ، انعقد بلندن عام ١٩٣٠م ، بتحليل الجناحين فوجد فى أحدهما عناصر كيماوية تعقم العناصر الموجودة فى الجناح الآخر[١].

« اذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم ، فليغسله سبعاً ، إحداهن بالتراب » .

وفى ذلك إشارة إلى ريق الكلب يسبب داء الكلب وان جرثومة هذا المرض لا تستأصل إلا بالتربة المساة « هومس » (Humus) ، والتى هى أحد عناصر البنسلين[٢].

أثر هذه التعاليم فى العرب والمسلمين الأوائل

قد أثرت هذه التعاليم فى العرب والمسلمين الأوائل تأثيرا بليغا ، فجعلتهم أقوياء الأجسام وسلام العقول . ونبغ بينهم عدد كبير من أبطال فى جميع ميادين النشاطات البشرية على نحو لا مثيل له فى التأريخ .

وأقر علماء الغرب بأن المدن الاسلامية أمثال مكة والمدينة وبغداد ودمشق والقاهرة كانت أنظف مدن الدنيا قاطبة ، ونيجة لهذا ، لم تحدث لديهم أوبئة .

(١) الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، المصدر المذكور ص ٢٠٩

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٩

وعند ما ظهر الطاعون فى أوربا عام ١٣٤٧ م . وقتل ربع سكان القارة كلها ، توقف عند حدود العالم الاسلامى بسبب النظافة وحدها .

وجدير بالذكر بهذا الصدد أن المفكر الغربى الشهير « جورج برنارد شو » قد أجل أهمية تعاليم الاسلام الطبية فى خلق مجتمع صحى" اذ ذكر فى كتابه « حيرة الطبيب » انه عند ما ابتدأت بريطانيا فى استعمار العالم الاسلامى ، عملت على إجبار سكان (جزر السندويتش) على ترك الاسلام واعتناق المسيحية . فما ان نجحت فى ذلك حتى أخذت الأوبئة المهلكة تظهر بينهم لأن مصيغى الاسلام كمحمد (عليه الصلوة والسلام) كانوا مستنيرين إلى حد كاف حتى أدخلوا إجراءات صحية عديدة كالواجبات الدينية كمثل الوضوء والطريقة التبجيلية للتخلص من كل شيء ينبذه جسم الانسان حتى بالنسبة لقلامة الأظافر والشعر ، وأما مبشرونا ، فرفضوا هذا المبدأ الالهى على نحو طائش بدون تزيده بطريقة نظافة أخرى ، فسرعان ما أدى ذلك إلى الكسل والاهمال[١].

ومن أثر هذه التعاليم فى العرب أنهم اهتموا بالدراسات الطبية اهتماما كبيرا ، فترجموا كتب الطب عن كثير من اللغات . وأول من كان له الفضل فى هذا هو خالد بن يزيد بن معاوية ثم أقبل المسلمون بعده على الترجمة والتأليف حتى نمت وأثمرت فى العصر العباسى وبلغ من إهتمام خلفاء العرب بعلوم الحكمة ــ ومنها الطب ــ ان الخليفة المأمون شرط على ملك الروم أن يرسل اليه كتب الحكمة ، بدلا من المبالغ الكثيرة التى كان يقدمها اليه جزية[٢] .

(١) Bernord show : The Dcctor's Dilemmead by A. C. Word P. 80

(٢) سعيد الديوه جى : الخدمات الصحية فى الاسلام فى مجلة المعرفة ، بغداد ، الجزء الحادى والثلاثون ص ٧

وقرّب الخلفاء الأطباء وأغدقوا عليهم الهبات والهدايا الكثيرة والرواتب الوافرة ، فيقال ان جبرائيل بن بختيشوع الطبيب الخاص للخليفة هارون الرشيد كان قد جمع عنده ٨٨،٨٠٠،٠٠٠ درهم . وكان ابنه بختيشوع بن جبرائيل يضاهى الخليفة المتوكل فى اللباس والفرش . فكل هذا يدل على مدى اهتمامهم بأمر الأطباء وبتطوير هذا العلم .

ولعل مما ساعد على تطور الطب وما اتصل به من علوم تنظيم الخليفة المقتدر الذى فرض على الأطباء تأدية امتحان تقنى ، فبلغ عدد المتخرجين ببغداد عام ٩٣١م ثمانمائة وستين طبيباً (١) ، كما أجرى أول امتحان للصيادلة أيام الخليفة المعتصم .

ونبغ لدى العرب والمسلمين أطباء عظام ساهموا فى جميع فروع الطب مساهمة فعالة . ولعل ابن ذكريا الرازى هو أول من أنشأ علم الطب التجريبى ، اذ كان يجرى تجاربه على الحيوانات ، ويسجل جميع ما يشاهده بدقة عجيبة . وهو أول من وصف الجدرى والحصبة . وكان أول من قال بالعدوى الوراثية ، وكان واسع الإطلاع فى استعمال الأدوية . ومن أهم مؤلفاته «كتاب الأسرار» فى الإحياء . وقد اعترف له الغربيون بمآثره فى أمراض النساء والولادة والرمد وجراحة العيون وفى الأمراض التناسلية . وكتابه «الحاوى» يعد دائرة معارف طبية اذ يقع فى ثلاثين مجلدا .

ولا شك أن أشهر أطباء العرب بعد الرازى هو ابن سينا المعروف بالشيخ الرئيس . وهو أول طبيب وصف عوارض التهاب سحايا الدماغ وصفا صحيحا ، ووصف ذات الجنب وحصى المثانة وحصى الكلوة . وبرع فى وصف الحصبة وعلاجها ، واشتهر تحت اسم أمير الأطباء بعد تأليفه كتاب «القانون» الذى

(١) P. K. Hitti : History of Arab P. 364

احتوى على جميع العلوم الطبية فى زمانه . وقد قيل عن هذا الكتاب « إنه كان الانجيل الطبي لأطول فترة من الزمان » إذ انه كان كتاب التدريس الطبي عند العرب و الأوربيين لمدة تزيد على ثمانية قرون[١]. وهو أكثر الكتب التى ترجمت الى اللغات الأجنبية فى تأريخ الطب، وقد ذكر فيه اسم ٧٦٠ عقارا من العقاقير التى تأكد من مفعولها الشافى ، وقد أخذ الغرب أسماء هذه العقاقير عن كتاب القانون، وأدخلها فى علم النباتات والأقرباذين[٢].

كذلك نبغ فى الأندلس فى هذا العصر أطباء أفذاذ لا يمكن حصرهم فى هذا المقام. وأبرزهم أبوالقاسم الزهراوى صاحب كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » الذى يقع فى ثلاثين مجلدا . وهو أول عمل موسوعى فى الطب والجراحة . وخصص الجزء الأخير منه للجراحة حيث يوجد فى مخطوطته أكثر من مائتى رسم لأدوات الجراحة التى صممها المؤلف بنفسه ورسمها بيده . ويعد هذا الكتاب اللبنة الأولى فى الجراحة الحديثة اذ هو أول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصى المثانة واستخراجها بتشريح جراحى، كما عالج الشلل واستعمل خيوط الحرير فى رتق الجراحات .

وأما ابن رشد الأندلسى فهو أول من أشار الى الدورة الدموية الكبرى وعللها فى كتابه « الكليات فى الطب » الذى استمد منه وليام هارفى معظم نظرياته وقد سبقه ابن النفيس المصرى الى الكشف عن الدورة الدموية الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون[٢].

---

(١) المصدر المذكور

(٢) الدكتور رياض العلمى : الأعشاب والصيدلة فى الاسلام ، فى مجلة « الكويت » ديسمبر ١٩٨٠ م ص ٤٣

ومما يستحق الذكر فى هذا الصدد أن العرب ، بخلاف ما ادعاه بعض الغربيين ، قد عرفوا ومارسوا التشريح أيضا ، و هذا بالرغم مما كان يثار من تحريم الدين الاسلامى للتسليخ ، ولقد رفض ابن رشد هذه الأقاويل ، ومارس التسليخ . وكان يؤيد فعله هذا بالاستشهاد بالآية الكريمة : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تفكرون ﴾[1] . وقال العلامة ب . ج . أندريه فى كتابه « الاسلام و العناصر البشرية » : « كان الأطباء العرب فى القرن العاشر يعلمون تشريح الجثث فى قاعات مدرجة خصصت لذلك فى جامعة صقلية »[2] .

وأما المستشفيات والمصحات فقد كان للعرب باع طويل فى تصميم وتأسيس وبنائها . ففى أيام الأمويين بنيت بعض المستشفيات للجذومين والعميان ، ولكن بعد قيام الدولة العباسية شيد عدد كبير من المستشفيات الكبيرة فى بغداد ودمشق والقاهرة . وبينما كان الغربيون يقيدون المجانين بسلاسل الحديد ويضربونهم ،كان العرب يعالجونهم فى مستشفيات خاصة لهم .

و قد وصف عبد الواحد المراكشى المستشفى الموحدى قائلا : « وبنى المنصور الموحدى بمراكش بيمارستانا ما أظن أن فى الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع فى البلد وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن

(١) عبد اللطيف البدرى : الزهراوى ، فى مجلة العربى ، الكويت . اكتوبر ١٩٨٢ م ص ٤١ .

(٢) الدكتور عبد الحميد سند الجندى : آفاق اسلامية ، العدد السابع والسبعون ، ص ١٨٢ .

يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياها كثيره تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك فى وسط إحـداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان الحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت . . . وأعـد فيه للرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل [١]».

« وذكر ميلي فى كتابه « الموحدون » المؤلف عام ١٩٢٣م إن هذا المستشفى لا يخالف وراءه مصحات أوربا المسيحية فحسب ، بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس [٢] » .

وقال والتر فى كتابه « مختصر التأريخ » :

« ازدهر علم الطب والتداوى عند العرب على حين كان الأوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه اذ ان الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوى فى زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين وبالتعاويد والرقى التى كان يبيعها رجال الدين . . . وكان الأوربيون يستنكفون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين [٣] » .

وكانت مؤلفات الأطباء العرب هى المعتمد الأكبر فى الطب عند علماء الغرب لمدة قرون . وفى ذلك يقول العلامة جوستاف لوبون ، « لقد كانت كتب العرب

(١) التراث العربية وعناصره الصالحة ، المصدر المذكور ، ص ١٠٨ .
(٢) نفس المصدر نفس الصحفة .
(٣) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

المرجع الوحيد للدراسة الجامعية فى أوربا أكثر من خمسة قرون ، وظلت علوم الطب خاصة المصدر الوحيد للدراسة خلال ثمانية قرون ، حتى لقد استمرت جامعة « مونبلييه » تستشهد بآراء ابن سينا فى قانونه الى أواخر القرن الماضى[1]» .

فكل هذا يدل دلالة واضحة على أن العرب اندفعوا بحافز من دينهم ، وأدوا خدمات جلى فى سبيل تطوير علم الطب . فأصبحوا رواد الطب الحديث وما اتصل به من علوم بدراساتهم وبحوثهم الطبية التى تمتاز بروحها التجريبية والعلمية البحتة .

◎ ◎ ◎

(١) الدكتور عبد الحميد سند الجندى ، المصدر المذكور ، ص (١٨٠ - ١٨١) .